التقارير

منطقة بحر قزوين ما بين التنـافس الدولي والإقليمـي

عبد الرحمن عبد الفتاح ناصف
المستشار الإعلامي السابق لمصر في دولة الإمارات

الملخص

تتمتع منطقة بحر قزوين بأهمية استراتيجية إقليمية ودولية جعلتها محل صراع وتنافس دولي وإقليمي دائم ومستمر، فضلاً عن الموارد الطبيعية الغنية من نفط وغاز وثروات سمكية، وقد شكلت المنطقة عبر التاريخ وحتى الوقت الحاضر موقع تنافس بين أغلب الإمبراطوريات السابقة الدولية والإقليمية المحيطة بالإقليم وخاصة من قبل روسيا، ومثلت منطقة القوقاز إطاراً تنافسياً على المصالح والأهداف، وهدفاً توسعياً لكل القوة العالمية الصاعدة وذلك بسبب موقعها الاستراتيجي وتميزها بالثروات الطبيعية.

حيث تُعد منطقة بحر قزوين مجالاً حيويًّا لروسيا فهي إحدى الدول المطلة عليه من الشمال، وفي ظل الخلاف القائم بين دول بحر قزوين حول كيفية تقسيم موارده، اصبحت كل من الولايات المتحدة والصين على خط المنافسة على ثروات المنطقة، وأقامت علاقات مع الدول المطلة عليه في إطار عقود استغلال واستكشاف للثروات، حيث تتمتع دول المنطقة وتحديدًا أذربيجان وكازاخستان وتركمانستان، باقتصادات قائمة على الموارد الطبيعية عالية القيمة بالإضافة إلى إنشاء أنابيب نقل وتطوير منشآت ملحقة مثل الموانئ والطرق البرية وحتى السكك الحديدية، وهو ما مثّل تهديدًا للنفوذ الروسي.

Absract :

The Caspian Sea region enjoys the importance of a regional and international strategy that has made it the subject of conflict and sustained international and regional competition. as well as rich natural resources of oil, gas and fish wealth, from history to the present, the region has been the site of competition between most of the former international and regional empires surrounding the territory, especially by Russia. The Caucasus region was a competitive framework for interests and objectives, and an expansive goal for all the world's rising power because of its strategic position and distinction with natural wealth.

The Caspian Sea region is a vital area for Russia, one of the countries with borders from the north. In the light of the disagreement between the Caspian States over how to divide its resources, Both the United States and China are on the competition line for the region's wealth. and established relations with the overlooking States within the framework of contracts for the exploitation and exploration of wealth, Where the States of the Caspian Sea region, specifically Azerbaijan, Kazakhstan and Turkmenistan, enjoy with high-value natural resource-based economies in addition to the construction of transport pipelines and the development of ancillary facilities such as ports, roads and even railways, this posed a threat to Russian influence there.

مقدمة :

يُعد بحر قزوين أكبر مسطح مائي مغلق في العالم، وتبلغ مساحته 370 ألف كيلومتر مربع، ومن الدول المشاطئه للبحر (روسيا، إيران، أذربيجان، تركمانستان، كازاخستان) ، تحده جبال البرز الإيرانية من الجنوب، والقوقاز من الشمال الغربي ويغديه نهر الفولغا الروسي من الشمال ليشكل دلتا واسعة قرب أستراخان، وهو من أقدم مناطق إنتاج النفط في العالم، ويعود تاريخ حفر أول بئر لعام 1840. ولبحر قزوين مكانة خاصة في إمدادات الطاقة العالمية بما يقدر بنحو 48 مليار برميل من النفط الخام، وحوالي 4.76 تريليونات قدم مكعب من الغاز الطبيعي، وتمتلك كازاخستان الحصة الأكبر من النفط بحوالي 31.2 مليار برميل، بينما تمتلك روسيا النسبة الأكبر من الغاز بنحو 3 تريليونات قدم مكعب.

وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي بدأ التنافس والصراع حول ثروات بحر قزوين بين الدول المستقلة، لا سيما في ظل ما يحتويه من ثروات هائلة من النفط والغاز الطبيعي، وكان النظام القانوني للملاحة في بحر قزوين وتنظيم استغلال ثرواته قبل تفكك الاتحاد السوفيتي ينظمه اتفاق 1921 بين الاتحاد السوفيتي وإيران، والذي ألغى القيود المفروضة على حرية الملاحة. واتفاق آخر عام 1940 خاص بتحديد المياه الإقليمية الخاصة بهما والانتفاع بثروات البحر، وبعد استقلال الدول المطلة على بحر قزوين (أذربيجان، وكازاخستان، وتركمانستان) ، طالبت الدول الثلاث بصياغة نظام قانوني جديد تتفق عليه الدول الخمس، ومن ثم أصبح هناك اتجاهان؛ الأول: يضم كلًا من روسيا وإيران وتركمانستان، ويدعو إلى اعتبار بحر قزوين حوضًا مائيًّا وبحيرة تتقاسم الدول المتشاطئة احتياطات النفط بها، وتحصل كل دولة بالتساوي على 20% من مساحتها وهو ما يخدم دولًا ذات إطلالة صغيرة على بحر قزوين مثل إيران، وتلتزم كل منها باتفاقيتي 1921، و1940.

الثاني: تدعمه كل من أذربيجان وكازاخستان، ويدعو إلى سريان قانون البحار على بحر قزوين واقتسام أجزائه المتشاطئة، واعتباره بحيرة حدودية مقسمة إلى خمسة أقسام، كل منها يمثل مياهًا إقليمية تتبع الدول الساحلية المطلة على البحيرة، ولها وحدها الحق في هذا الجزء من البحيرة، وترفض الالتزام بالاتفاقيات السابقة نظرًا لأنها تضمنت الملاحة وصيد الأسماك ولم تركز على استغلال الموارد الطبيعية.

ولحل الخلاف بين الدول المتشاطئة وقّعت الدول الخمس، في 12 أغسطس 2018، على اتفاقية الوضع القانوني لبحر قزوين، في محاولة للجمع بين وجهتي النظر الخاصة باعتباره بحرًا أو بحيرة من خلال النظر لسطح البحر كمياه دولية، وتقسيم أعماق البحر إلى مناطق وقطاعات إقليمية، ومنح الدول المطلة عليه حق مد أنابيب بحرية، واقتصار التواجد العسكري في البحر على قوات الدول التي تتقاسمه، وتحديد حصص سنوية لكل دولة من صيد سمك الحفش الذي ينتج الكافيار الفاخر.

وتعود دلالات عدم حسم الخلاف القانوني حول منطقة بحر قزوين إلى انشغال كل من إيران وروسيا بملفات أخرى، حيث العقوبات الأمريكية التي تواجه إيران فيما يتعلق ببرنامجها النووي، بالإضافة إلى انخراط روسيا في الملف السوري، إضافة إلى الصراع القائم بين أرمينيا وأذربيجان حول إقليم ناجورنو كاراباخ.

موارد بحر قزوين:

تُعتبر منطقة بحر قزوين منطقة غنية بموارد الطاقة: النفط، والغاز وفقا للتقديرات:

- النفط: إكتشف النفط في منطقة بحر قزوين منذ قرون عديدة. إلا أن أذربيجان الدولة المشاطئة تم إكتشاف النفط فيها منذ العام 1846، وحتى مطلع القرن العشرين كانت حقول نفط باكو في أذربيجان تؤمن أكثر من نصف الإنتاج العالمي. وتشير آخر التقديرات الى وجود أكثر من 250 مليار برميل من النفط القابل للإستخراج من منطقة حوض البحر، يضاف اليها حوالى 200 مليار برميل من الإحتياط المحتمل.
- الغاز الطبيعي: يقدر إحتياط دول منطقة بحر قزوين بحوالى 232 تريليون قدم مكعب من الغاز، ويحتل البحر المرتبة الرابعة بعد روسيا وإيران وقطر بحجم إحتياطه من هذه المادة التي تشكّل مع النفط الخام نقطة جذب وفاتحة شهية لكثرة من الدول الكبرى وشركات البترول التي تسعى الى استخراجه واستثماره وتمديد خطوط الأنابيب لنقله الى الخارج، وهذا ما يشكّل نقطة صراع وخلاف بين دوله والدول الأخرى المستوردة أو المستثمرة وخصوصاً روسيا والصين، وتركيا، وإيران، وأوروبا، والولايات المتحدة الأميركية.

- الكافيار: ويعرف "بالألماس الأسود" أو "اللؤلؤ الأسود"، وذلك نظراً الى لونه وارتفاع ثمنه، ويستخرج الكافيار، وهو بيض سمك الحفش "Sturgeon" من أنواع محددة من هذا السمك، ويوجد حوالى 25 صنفاً منه ثلاثة منه تنتج الكافيار وهذه الأصناف الثلاثة تعيش في بحر قزوين، خصوصاً قرب مصب الأنهار في الشمال على الفولغا والأورال، وفي الجنوب على النهر الأبيض (سفيد رود) الذي ينبع من جبال كردستان الإيرانية، ويصب في هذا البحر.

التنافس الروسي الأمريكي الصيني

تُعد منطقة بحر قزوين مجالًا حيويًا لروسيا فهي إحدى الدول المطلة عليه من الشمال، وفي ظل الخلاف القائم بين دول بحر قزوين حول كيفية تقسيم موارده، واصبحت كل من الولايات المتحدة والصين على خط المنافسة على ثروات المنطقة، وأقامت علاقات مع الدول المطلة عليه في إطار عقود استغلال واستكشاف للثروات، بالإضافة إلى إنشاء أنابيب نقل وتطوير منشآت ملحقة مثل الموانئ والطرق البرية وحتى السكك الحديدية، وهو ما مثّل تهديدًا للنفوذ الروسي هناك.

لذا عملت روسيا على احتكار منظومة خطوط الأنابيب لتصدير النفط والغاز إلى الأسواق الخارجية. ولإحكام قبضتها أكثر على الدول المنتجة للنفط والغاز في آسيا الوسطى وحوض بحر قزوين، اتفق رؤساء روسيا وكازاخستان وتركمانستان، في 12 مايو 2007، على مشروعين لبناء أنبوبي نقل غاز، ينطلق الأول من الحقول الشرقية لتركمانستان، والثاني مواز له ينقل الغاز عبر كازاخستان على طول بحر قزوين نحو روسيا لضمان نقل 20 مليار متر مكعب سنويًا، بدءًا من عام 2012. ويدخل هذان المشروعان في إطار توسيع أنبوب بريكاسبيسكي الذي يربط تركمانستان وكازاخستان بروسيا بهدف إفشال مخطط الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي لبناء أنبوب الغاز العابر لقزوين من أجل نقل الغاز التركماني والكازاخي عبر بحر قزوين إلى أنبوب نابوكو.

وتمثل منطقة بحر قزوين أهمية كبيرة في الفكر الاستراتيجي الأمريكي، فهي منطقة تضم منافسَيْن إقليميّيْن للمشروعات الأمريكية هما روسيا وإيران، لذا تعارض واشنطن الجهود الروسية لتحقيق نفوذ في القوقاز وآسيا الوسطى من خلال سعي واشنطن لزيادة إمدادات الطاقة من آسيا الوسطى للمستهلكين في مختلف الأسواق،

وحرمان إيران من استغلال وشحن وتطوير وتسويق منتجات الطاقة، ومنع أي دولة من احتكار الإمدادات النفطية في المنطقة، مع العمل على تطوير قدرة دول المنطقة على إنتاج وشحن النفط للخارج.

كما عملت الولايات المتحدة ضمن أهدافها الجيواستراتيجية على ضمان أن يصب معظم إنتاج آسيا الوسطى في الغرب، وحققت نجاحًا مع الانتهاء من خط أنابيب نفط باكو-تبيليسي-جيهان العابر لأذربيجان وجورجيا وتركيا والذي ينقل نفط أذربيجان على مسافة 1760 كلم إلى ميناء جيهان التركي شرقي البحر الأبيض المتوسط، وبدأ في مايو ، مع وضع أهداف مستقبلية لتطوير نشاط هذا الأنبوب لينقل غاز كازاخستان من أكتو عبر خط أنابيب تحت البحر والانتهاء من خط أنابيب غاز جنوب القوقاز عبر أذربيجان وأرمينيا، وتطوير ميناء جيهان التركي ليكون منفذًا رئيسيًّا إلى الأسواق العالمية للنفط الخام والغاز المسال

وواجه خط باكو- تبيليسى -جيهان غضبًا روسيًّا لأنه أول خط أنابيب ينقل نفط قزوين دون الاعتماد على منظومة الأنابيب التي تسيطر عليها روسيا.

كما أصبحت الصين قوة هامة وأقامت علاقات اقتصادية ودبلوماسية مع دول بحر قزوين كبديل للاحتكار الروسي ولمنافسة النفوذ الأمريكي، بالإضافة إلى تأمين إمداداتها النفطية، وتنويع مصادر الطاقة بعيدًا عن الشرق الأوسط، ومن ثم أقامت الصين عدة مشاريع أنابيب لنقل النفط والغاز منها أنبوب نقل النفط من كازاخستان نحو شينجيانغ الصينية وتصل القدرة التصديرية للأنبوب الممتد على مسافة أكثر من 3000 كلم إلى ما بين 800 ألف ومليون برميل من النفط يوميًا، وتم تجسيد المشروع عبر ثلاث مراحل، ووصل إلى طاقته القصوى عام 2011، ودخلت الصين في محادثات مكثفة لبناء خطوط أنابيب أخرى، فاتفقت في أبريل 2007 مع كازاخستان لاستكمال أشغال بناء أنوب نقل الغاز الموازي لأنبوب نقل النفط في عام 2009، كما تم التوقيع في 14 أكتوبر في بكين على بروتوكول لإنشاء خط أنابيب آخر لنقل الغاز باسم خط أنابيب بينو-شيمكانت، ويضخ 10 مليارات قدم مكعب من الغاز الكازاخي للصين سنويًا.

ونجحت الصين في تجسيد مشروع أنبوب الغاز الرابط بينها وبين تركمانستان في 14 ديسمبر 2009، وينقل للصين ما بين 30 و40 مليار قدم مكعب من الغاز الطبيعي،

فأصبحت الصين شريكًا تجاريًا هامًا لكل من كازاخستان وتركمانستان، وخلال زيارة الرئيس "شي جين بينغ" إلى منطقة بحر قزوين في سبتمبر 2013 تم توقيع اتفاقيات في مجال الطاقة تقدر بنحو 60 مليار دولار.

ونظرا الان منطقة بحر قزوين تمثل ساحة مهمة للتنافس الدولي بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي ومواردها الطبيعية الهائلة، مما يجعلها هدفًا للتنافس بين القوى الإقليمية والدولية، يمكن تحليل اهم أسباب التنافس الدولي في هذه المنطقة من عدة جوانب:

1. الطاقة: بحر قزوين غني بالنفط والغاز الطبيعي. الدول الكبرى مثل روسيا، والصين، والاتحاد الأوروبي، وحتى الولايات المتحدة، تسعى لتأمين الوصول إلى هذه الموارد الحيوية. خاصة أن الغاز الطبيعي يعد مهمًا بشكل خاص في ظل محاولات أوروبا تقليل اعتمادها على الغاز الروسي.
2. الممرات التجارية: بحر قزوين يمكن أن يشكل ممرًا تجاريًا حيويًا بين أوروبا وآسيا. مبادرات مثل طريق الحرير الصيني تهدف إلى الاستفادة من هذه المنطقة في تسهيل حركة التجارة بين آسيا وأوروبا.
3. السيطرة الجيوسياسية: روسيا تحاول الحفاظ على نفوذها في المنطقة كونها جزءًا من مصالحها التاريخية والجيوسياسية، بينما تسعى الصين وإيران لتوسيع نفوذهما أيضًا. من جهة أخرى، تحاول الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي تقليل هيمنة روسيا من خلال تعزيز علاقاتها مع دول مثل أذربيجان وكازاخستان.
4. قضايا ترسيم الحدود: هناك خلافات مستمرة بين الدول المطلة على البحر بشأن ترسيم الحدود البحرية وتوزيع الثروات تحت البحر، مما يضيف بعدًا إضافيًا للتوترات، وبالتالي، تعد منطقة بحر قزوين ساحة لتداخل مصالح متعددة الأطراف، ما يجعلها محط أنظار الدول الكبرى في إطار التنافس على النفوذ والسيطرة.

التطورات الجيوسياسية الإقليمية والدولية:

يعد مستقبل الأوضاع السياسية في منطقة بحر قزوين يعتمد على عدة عوامل، تتعلق بالتطورات الجيوسياسية الإقليمية والدولية، ومقدار التعاون أو التنافس بين الدول المطلة على البحر، وكذلك على توازن القوى بين الأطراف الخارجية المؤثرة، فيما يلي بعض السيناريوهات المحتملة للأوضاع السياسية في المنطقة:

1.**زيادة التعاون الإقليمي:**

من الممكن أن تشهد دول بحر قزوين تعاوناً أكبر إذا تم حل الخلافات حول تقاسم الموارد بشكل فعال، خاصة بعد توقيع اتفاقية 2018 التي حددت الوضع القانوني للبحر. تعزيز التعاون بين الدول قد يؤدي إلى تطوير مشاريع مشتركة في مجال الطاقة والبنية التحتية، مثل خطوط الأنابيب والسكك الحديدية، وهو ما سيساهم في تحقيق استقرار سياسي واقتصادي أكبر.

في هذا السيناريو، قد تلعب الصين وروسيا دورًا في دعم الاستقرار عبر تعزيز الاستثمارات الاقتصادية والبنية التحتية كجزء من مبادرة "الحزام والطريق" وتعزيز التعاون العسكري.

2.**تفاقم التنافس على الموارد:**

إذا استمرت الخلافات حول تقاسم موارد بحر قزوين أو إذا ظهرت مشكلات جديدة تتعلق بالاكتشافات النفطية أو الغازية، فقد تتزايد حدة التوترات بين الدول. مثل هذه النزاعات قد تؤدي إلى تصاعد التوترات السياسية وربما العسكرية.

قد تسعى بعض الدول إلى التحالف مع قوى خارجية (مثل الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي) للحصول على الدعم في مواجهة ضغوط القوى الإقليمية الكبرى (روسيا أو إيران). هذا السيناريو قد يزيد من تعقيد الأوضاع السياسية ويضعف الاستقرار.

3.**تصاعد النفوذ الروسي:**

مع محاولات روسيا الحفاظ على نفوذها التاريخي في المنطقة، يمكن أن تستمر موسكو في تعزيز وجودها العسكري والدبلوماسي في بحر قزوين، روسيا قد تعمل على إبرام اتفاقيات أمنية جديدة مع دول المنطقة لتعزيز موقعها، خاصة في ظل التوترات الدولية المستمرة مع الغرب، هذا السيناريو قد يؤدي إلى تعزيز العلاقات بين روسيا ودول مثل كازاخستان وأذربيجان، ولكنه قد يضعف من تأثير الدول الغربية في المنطقة.

ورغم التعاون، هناك تنافس غير مباشر بين روسيا والصين على النفوذ الاقتصادي، فإنها تحاول الحفاظ على هيمنتها في مجال نقل الطاقة، بينما الصين تستثمر بشكل كبير في بناء بدائل وخطوط أنابيب لا تمر عبر روسيا.، كما انها تنظر بقلق إلى توسع النفوذ الصيني في آسيا الوسطى، حيث تزداد الاستثمارات الصينية بشكل كبير، ما يقلل من الاعتماد على روسيا كشريك اقتصادي.

4. **زيادة تدخل القوى الكبرى:**

قد تسعى الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي إلى لعب دور أكبر في المنطقة بهدف تقليل الاعتماد على روسيا في مجال الطاقة وتوجيه دول بحر قزوين نحو أسواق غربية. قد تقوم الولايات المتحدة بدعم مشاريع الطاقة البديلة وخطوط الأنابيب الجديدة التي لا تمر عبر الأراضي الروسية، الصين، من جانبها، قد تستمر في توسيع نفوذها الاقتصادي من خلال مشاريع البنية التحتية والاستثمارات في قطاعات الطاقة. هذا التنافس بين القوى الكبرى قد يؤدي إلى تعقيد التوازنات السياسية في المنطقة، وربما يولد توترات جديدة.

حيث تقوم روسيا والصين بأدوار استراتيجية متشابكة في منطقة بحر قزوين. في حين تعتمد روسيا على نفوذها التقليدي وموقعها الجغرافي للحفاظ على الهيمنة، تسعى الصين إلى توسيع نفوذها الاقتصادي من خلال استثمارات ضخمة في مجال الطاقة والبنية التحتية. العلاقة بين البلدين تتميز بتعاون قوي في مواجهة الغرب، لكن التنافس على الموارد والنفوذ الاقتصادي قد يشكل تحديات مستقبلية، فهما قوتان رئيسيتان تلعبان دورًا مهمًا في منطقة بحر قزوين، ولكل منهما أهداف استراتيجية تسعى لتحقيقها في المنطقة، التنافس والتعاون بين هاتين القوتين يتشكل بناءً على مصالحهما الاقتصادية والجيوسياسية

5. **التحديات البيئية وتأثيرها السياسي:**

تعد قضايا التغير المناخي والتلوث البيئي قد تصبح عوامل رئيسية في صياغة المستقبل السياسي للمنطقة. مع تزايد الضغوط الدولية لحماية البيئة والتخفيف من تأثيرات التنقيب عن النفط والغاز، قد تتطلب الأوضاع البيئية تعاونًا أكبر بين الدول المطلة على البحر، حيث ان الفشل في معالجة هذه القضايا قد يؤدي إلى نزاعات على إدارة الموارد البحرية والاستدامة البيئية، مما قد يؤثر سلبًا على الاستقرار السياسي.

الخاتمة:

يعد مستقبل الأوضاع السياسية في بحر قزوين غير مستقر تمامًا، ويعتمد إلى حد كبير على قدرة الدول المطلة على إدارة التحديات الحالية والتوافق على حلول مستدامة، التحالفات الجيوسياسية، وإدارة الموارد، والتدخلات الخارجية، بالإضافة إلى التغيرات البيئية، كلها عوامل يمكن أن تلعب دورًا حاسمًا في تحديد مسار الأحداث في المنطقة.